القصص

قصة مصرية

قبلت زواجها

للأستاذ دريني خشبة

(الحوار في الأصل باللهجة المصرية)

جلس (عم حامد) على حفافي الماء يغسل آثاراً من الدم الأحمر القاني في ملابســه، ثم توضأ وولى وجهه شــطر القبلة وطفق يصلي . . .

ولكنه كان يصلي صلوات غير منتظمة ولا متساوقة ... فتارة كان يطيل الركوع جـداً ، وتارة كان يخطفه خطفاً ... ومرة كان يطيل السجود حتى يظن أنه نائم ، ومرة أخرى كان لا يكاد يمس الأرض بجبينه حتى يستوى جالساً ؛ وكان مرة يصلى ركعة واحدة ويسلم ، ثم يصــلى ركعتين أو ثلاثا أو أربعا . . . ومرة كان يستمر في صلاة طويلة لا تـكاد تنتهى ! . . . عشر ركعات أو خمس عشرة ركعة . . . وهكذا ! !

وكان يعود إلى الترعة فيتوضأ ويتوضأ ، ثم يعود فيصــلى ويصلى . . . وكان يرفع كفيه إلى السماء ، ويملأ عينيه المغرورقتين بزرقتها ، ثم يلهج بذكر الله ، ويصلى على نبيه ، ويكثر من قول : « لا حول ولا قوة إلا بالله ! ! » ولـكنه كان يكثر كذلك من قول : « عمر ، عمر ، عمر ! » ثم يبكى بكاء مراً !

وكان كلبه الأمين يُبقى بعيداً عنه ، وينظر اليه ويتعجب !

— « من عمر يا عم حامد ؟ السلام عليكم ! »

— « أوه ! عبد الله ! تعال يا عبد الله نصلى ركعتين لله ! »

— « أى صلاةٍ الآن ؟ باق على الظهر ساعة يا عم حامد ! »

— « ساعة على الظهر ! والله يا بنى أنا فاكر أن الشمس لم تطلع بعد ! »

— « لا يا عم حامد ! نحن في الشتاء والغيوم تحجب السماء ، ولـكن من عمر الذى تناديه يا عم حامد ؟ »

— « عمر ؟ عمر من ؟ عمر بن الخطاب ! »

— « وماذا تريد من عمر بن الخطاب في هذا البرد القارس؟ »

كم تهاديتِ فوقَ هام التواريـ   ـخ ، دنيـا سحريّـةَ الأنحاءِ
يلعبُ النور فوق ضاحى صياصيـ   ـها ويلهو على ثرى الأوْداءِ !
كم تجلّيتِ في الوجود سماءً   رصّعتْها كواكبُ الأنبياءِ !
تفنعُ الناسَ بالعـدالة والـلـ   ـم وبالحلم والتقى والإخاءِ !

* * *

إنّ فلسطينُ ، مهبطَ الوحى والالـ
ـهامِ والدينِ والهدى والحيـــاءِ
جنةً كنتِ فاستحلتِ جحيماً   بوجود اليهودِ والأوصياءِ !
كنتِ بالأمسِ ملْءَ باحاتكِ السلمُ
فأصبحتِ ســـاحة الهيجاءِ !
فثراكِ الفسيحُ قد غصّ « بالتَنْك » ،
وبالطائراتِ رحبُ الفضـــاءِ
وتبارى بأهلك العُرْب تمثيـ   ـلاً وفتكاً ، جندُ الوصىّ المرائى !
فاستحلوا قتلَ البرىء ، فما يُبْـ   ـصَرُ إلاّ مضرّجٌ بالدماءِ
وأديمٌ مخضّبٌ وصعيدٌ   قد علتْهُ نثارةُ الاشلاءِ
إن تحت الدم المرقرقِ أفوا   هاً وطيّ الاشلاءِ رجْعَ نداءِ
تستفزّ النفوس للأخْذ بالثأ   رِ وللإنتقامِ للشهـــداءِ !
والملايينُ لا تنامُ على الضيـ   ـم ولا تستكينُ للأعداءِ
ودماء الأحرارِ مهْرٌ للمعالى   وصَداقُ الحريّةِ الحمراءِ ! !

* * *

إصمدى ، إصمدى ، فإنّ الضحايا   يا فلسطينُ سُـلّمُ العلياءِ

— « لا شيء ... فقط ... ذكرته في جاهليته وقد خرج الفجر ليدس ابنته في التراب وكانت الطفلة تعبث بشعر ذقنه فينظر اليها ويبكي .. مسكين سيدنا عمر ! كان له حق ! كان له حق

— « كان له حق حين ذهب يدفن ابنته حية ؟! يالقسوة ؟ »

— « والله كان له حق يا عبد الله ! البنات ! آه من البنات يا بني ! »

— « استغفر الله ياشيخ ! مالك مضطرباً هكذا يا عم حامد ؟ »

— « أستغفر الله ! آ صحيح ! أستغفر الله ، أستغفر الله »

— « الله أكبر ... ما هذا الدم يا عم حامد ! »

— « دم ! أيّ دم ؟ آه ! هذا من جرح بسيط في ذراعي يا عبد الله »

— « وماذا جرح ذراعك ؟ »

— « وقعت على هذا الحجر وأنا أتوضأ ، وكانت عنده زجاجة ... هل بذرتم البرسيم ؟ »

— « بذرنا البرسيم ؟ نحن (نعلف) بهائمنا منه وأنت تسأل عن بذره ؟ ماذا بك يا عم حامد ؟ »

— « لا شيء ! اتركني يا عبد الله ! أود أن أنام قليلاً ، أنا متعب يا بني ، لم أنم طول الليل ... »

— « السلام عليكم يا عم حامد ، كان الله في عونك ! كان الله في عونك يا شيخ »

* * *

وانصرف الشاب الفلاح وفي قلبه وسواس يشغله ؛ فهو لم يعهد عم حامد ، الرجل الطيب ، كما عهده اليوم شديد الحيرة بادي الارتباك مغبر الوجه ؛ وعهده به الشيخ الهادىء الدمث المشرق الجبين الضاحك المُحَيَّا ؛ ولكن الشاب مع ذلك لم ير أن يلحف حتى يقف على سر الفلاح الشيخ ، الذي لا يوجد في القرية بأكملها من يصلي أكثر منه ، أو يعطف على الضعفاء والمحتاجين كما يعطف هو على الضعفاء والمحتاجين ...

ثم تعب عم حامد من كثرة ماصلى وناجى ربه ، فنام على الحشيش اليابس المنتثر في المصلى ، وطرح فوقه ذلك (البشت[1]) الذي صنعه بيديه من الصوف الغليظ الذي لا يُرى الشيخ إلا وهو يغزله ، واسترسل في سبات عميق ممتلىء بالأحلام المخيفة والرُّؤى الدامية

وأقبلت فتاة جريحة ... فلاحة ساذجة ، تضع فوق رأسها (طرحةً) من الشاش الأسود مُسبلةً على العنق الطويل المربوط برباط كبير من الشاش الأبيض انتفخ القطن من تحته ليدل على جرح كبير في مكان خطر ؛ وربطت كذلك ذراعها اليسرى كما ربطت عنقها

أقبلت هذه الفتاة نحو المصلى ، ووقفت عند رأس عم حامد تنظر إليه في ذلة وانكسار ، وترسل من عينيها الدعجاوين دموعاً كالمطر حارَّة سخينة كأنها تفور من قِدْر تغلي ... وكانت ثيابها البسيطة تزيد في جمالها الهادىء الحزين ، وتبرز من الصدر نديين ناهدين ينحدر عليهما الجلباب الفضفاض فيجعلهما كتماثيل مختار ، وتبدي من أسفل قدمين صغيرتين بَدُوريتين هدأ على كعبيهما خلخال كبير فضي تمتاز به أقدام الغيد الأماليد من قرويات مصر ، وهو دائما فتنة الأنظار في الريف المصري . على أن وجهها الشاحب المزعج كان هو الآخر فتنة الفاتن ! حاجبان رفيعان مقوسان تحت جبين ناصع فوق عينين كبيرتين حوراوين ، تضاعف سحرهما أهداب طويلة كحيلة ، تلقي ظلالاً من الجمال المصري على الخدين البارزين الشمرين ... كأنما خلقها الله محوراً لأمور جسام تقع في ذلك البيت الصغير من تلك القرية الكبيرة البارزة في ريف المنوفية ، توكيداً لخلق الفلاح المصري الذي يقدس العفاف في الفتاة ، ولا يسمح أن يُفتَح قلبها إلا عن طريق أبويها

وكان عم حامد يتقلب على شوك أحلامه ، ثم استيقظ فجأة ليرى فوق رأسه « ثُرَيّا » ابنته ... ثريا ... التي حسب أنه قتلها وعشيقها بمحشته الكبيرة ..

وفرك عينيه مرتين أو ثلاث مرات ، ولكنه تأكد أنها هي ... هي ثريا من غير شك

— « بنت ؟ ... »

— « ... ؟ ... »

— « ثريا ؟ ! »

— « أبي ... »

— « وكيف تركت محمود ؟ »

— « حالته خطرة جداً ... قد يموت بعد ساعات »

— « آه ... يارب ... يارب ... يا لطيف ! غفرانك يا لطيف ! »

وصمت لحظة ، ثم نادى ابنته ...

(١) هذا اسمه المصري ويسمى بالعربية (البت) بغير شين ذكره الثعالبي في فقه اللغة وجاء في اللسان والقاموس

— « ثريا . . . سامحيني يا ثريا . . . سامحيني يا ابنتي . . . سامحيني ... قولي الله يسامحك يا أبي ... قولي ... الله ! لما ذا تبكين ؟ الجروح تؤلمك ؟ لا ، لا ... ستشفى هذه الجروح إن شاء الله ... تعالى يا ثريا ، تعالى ، اجلسي الى جانبي ؛ تعالى ، أنت خائفة ! اطمئني يا بُنَيَّة ! اطمئني ... لقد غسل دمك ودم محمود كل ما كان في قلبي من غيظ ... الله يشفيه محمود ابن خالي ، هل كنت تحبينه يا ثريا ؟ »

— «والله يا أبي لقد كان يبشرني بأنه سيخطبني إليك اليوم! »

— « لا حول ولا قوة إلا بالله ! ولكن ! على كل حال كان يجب ألا تسمحي له بتقبيلك ...

أنا ظننت ، لاسمح الله ، أن بينكما ... (شيئاً حراماً) ! »

— « لا والله يا أبي ، ما كان بيننا إلا كل طهارة »

— « لا عليك يا ثريا إذن ... الله يشفيه يا بنية ويتزوجك وتتمتعان بشبابكما ... لاحول ولا قوة إلا بالله ، أنا (أخطأت) لا ريب في ذلك ... صحيح ، أنا تسرعت...ولكن الحمد لله ... لا بد أن أصلي ركعتين شكراً لله على سلامتك يا بنتي ! »

وذهب عم حامد الى الماء وتوضأ ثم راح يصلي صلاة خاشعة هادئة منظمة

***

لقد كانت خلية من النحل تطن في رأس ثريا من أجل محمود ، فلقد كانت تحبه ، بل تعبده ؛ ولقد كان يحاول أن يحملها بين ذراعيه الواهيتين الضعيفتين بعد أن فاجأهما عم حامد يتناجيان في منزله الخالي ، فضربهما بعشته تلك الضربات التي حسبها قضت عليهما ، وغسلت عن عرضه عار الفضيحة التي زعمها تلحقه في ابنته ... ولكن محموداً ، القوي الجبار ذا العضل ، عجز حتى عن حمل نفسه ، لأن جروحه كانت أكبر ، ولأن الدماء ظلت تتفجر منها وتنهمر ، فسارت ثريا الى جانبه تسنده على رغم ضعفها وإعيائها حتى بلغا دار حلاق الصحة القريبة ، حيث وجداه يطبب فلاحين كثيرين ثمة ، وحيث كان ابنه يضع (العَلَق) على أورام العجائز ، أو يعالج الحمص في مرضى مساكين

— « عم أبا طالب . . وحياة أبيك تلحق ، اربط جروح ثريا ، و ... جروحي بعد ذلك ... »

— « لا ... لا ياعم أباطالب ... الحمدلله ... عليك بمحمود أولاً ! »

ولم يكن أحد من المرضى الكثيرين في دار عم أبي طالب من أهل القرية لحسن حظ الجريحين ، فكانا يتكلمان بجرأة وصراحة ، وأراد عم أبو طالب أن يصيد سمك الجنة من دماء الفتى والفتاة ، فقال : « الله أكبر ، ماهذه الجروح ؟ هذه جناية بالتأكيد ! لابد أن أبلّغ ! سأبلغ الشرطة لضبط الحادثة . . »

وترك مايشغله من أعمل بالفعل ، ثم لبس معطفه الكحلي الكبير وعم شطر الباب يوهم الجريحين أنه منصرف الى مركز الشرطة للتبليغ عن الحادث

— « ياعم أبا طالب ! يا عم أبا طالب ! خذ من فضلك ! »

وكان صوت محمود وهو ينادي حلاق الصحة ضعيفاً واهياً

— مالك يا سيد محمود ؟ هذه جناية ولا بد أن أبلغ ...

ثم اقترب الحلاق من الجريح البائس الذي لم يكن يمتلك أكثر من عشرة قروش ، ومد يده

— « هاك (بريزة) ياعم أباطالب ، ولما (أخف وتخف) ثريا . . . »

— « بريزة ! ما شاء الله ، والله إنها مسألة لا يكفيني فيها جنيه وغرارتان من الأرز ... »

— « لك ذلك يا عم أبا طالب ... أسرع وحياة أبيك »

ورفضت ثريا أن تضمد جروحها قبل محمود ، وحاول محمود أن يؤثرها على نفسه ولكن الحلاق الذي لا يعرف هذه العواطف تقدم بقطع القطن والشاش القذر وصبغة اليود والمرهم ، فضمد جروح الفتى ، ثم جروح الفتاة »

— « كيف حال محمود يا عم أبا طالب ؟ »

— « اسكتي ، حالتك أحسن منه بكثير ، مسكين ، ربما لا يأتي عليه ثاني يوم يا ...

على كل حال الجنيه وغرارتا الأرز لا آخذهما إلا منك ... والا ... فالفضيحة إن شاء الله !! »

— « ربنا يستر يا عم أبا طالب ... ان شاء الله ربنا يشفي محمود ، ويرى خاطرك »

وتركت ثريا حبيبها في منزل الحلاق وتهالكت على نفسها الى الحقل لتلقى أباها ، لأنها أعرف به ، ولأنها واثقة أن ثورة الغضب التي سيطرت عليه لا بد أن تكون قد هدأت وسكنت ريحها ... ثم هي عارفة بورعه وتقاه وقلبه المؤمن الذي لا يحب لصاحبه أن يكون سافك دماء زكية بغير جرم غير

الظن ، وكم من الظن ما هو إثم لو تدبر صاحبه ... ذهبت إليه إذن ... وكانت ألف فكرة تزدحم فى رأسها طيلة الطريق ...

« ترى ؟ كيف أكلمه ؟ وكيف أبدأ حديثى معه ؟ هل سكن روعه ؟ أم هو حين يرانى ما أزال على قيد الحياة يثور ثائره ويتمم المأساة ؟ آه يا ربى ! أحلم بالزواج وتأبى المقادير التاعسة الا الفضيحة ؟ ... ... »

واختتم الشيخ المحطم صــلاته ، ونظر الى ابنته بعينين وجراحتين تفيضان بدمع غزير ، ثم دعاها لتجلس إلى جانبه فامتثلت ثريا ، ودنت منه وقلبها يخفق وجسمها يرتجف ، ثم جلست معه فى المصلى ، وبدلاً من أن يضغط بذراعيه على عنقها فيخنقها كما كان يخيل اليها ، تناول رأسها الجميل فطبع على جبينها قبلة هادئة صامتة ، وتحدرت دموعه على خديها ، ثم جعل يرجو منها أن تسامحه !

وصمت الوالد وابنته لحظة ، ولكن صراخاً مرعباً ارتفع فجأة من جهة القرية ، فنظرت ثريا ، وهالها أن ترى نسوة متشحات بالسواد يجتمعن قرب الحارة التى فيها دكان الحلاق !

— « أبى ! . . أبى ! . . محمود ! . . »

— « محمود ؟ ماله يا ثريا ؟ . . . »

— « مات ! »

— « مات ! لا حول ولا قوة الا بالله ... مسكين محمود ! »

ومر غلام بهما كان مقبلاً من جهة القرية فسألاه : من مات ؟ فأجابهما : « انه محمود ابن عم حنفى .. مات عند حلاق الصحة من جروح فى عنقه .. قتلوه ! الله ينتقم منهم ! قتلوه من أجل قفة ذرة ! »

واسودت الدنيا فى عينى عم حامد ، وأيقن أنه ممض بقية حياته فى غيابة السجن ، وما كان أحوجه الى نهاية مريحة ناعمة ...

أما ثريا ، فقد انهدت قواها ، وطار لونها ، وامتلأت عيناها الجميلتان الحزينتان بأشباح الوحشة ، وفكرت فى أحلامها التى طاشت ، فكانت تتراءى لها طيوراً سوداً كالخفافيش تملأ الغرب الذهبى الذى أوشكت شمسه أن تغيب !

— « أبتاه ! »

— « نعم يا ثريا ! »

— « لازم نروح ! »

— « الى أين يا بنتى ؟ »

— « هناك ! عند ... ا ... (عزا) »

— « طبعاً يا بنتى ... هيا ... لا علىَّ أن يضعوا الحديد فى يدىَّ ! هذا أمر الله وقضاؤه ! واذا سألوك فيجب أن تعترفى بالحقيقة يا ثريا ... لا حول ولا قوة الا بالله ...

وسار الشيخ المسكين وسارت فى إثره ابنته ، حتى اذا بلغا القرية وبما شطر منزل حلاق الصــحة لم يجدا أثراً لجنازة أو نحوها ، فظن عم حامد أنهم ذهبوا بالميت الى مسجد القرية للصلاة عليه ، ولذلك انثنى ليأخذ طريقه الى المسجد ، ولكن رأساً برز من نافذة فى باب الحلاق أخذ يناديه فجأة : « يا عم حامد ... ياعم حامد ... هات ثريا وتعال ... »

ونظر الشيخ ، فرأى الحلاق نفسه هو الذى يناديه ، فذهب إليه وصمت لحظة وهو يرمقه ، ثم قال له :

— « أبا طالب ! استرنى يسترك الله ! أنا ما صنعت ذلك إلا دفاعاً عن عرضى ! هل بلغت الشرطة ؟ »

— « اطمئن يا عم حامد ، اطمئن ، ولكن قبل كل شىء كم جنيهاً ستعطينى ؟ »

— « كل ما تطلب يا أبا طالب ! »

— « خمسة جنيهات على الأقل ياعم حامد ؟ »

— « لك ذلك يا ولدى ... »

— « تعال إذن ... شرّف منزلى ... »

* * *

ودخل الرجل . . . ودخلت فى إثره ابنته ، يحملان هموم الدنيا والآخرة !

ياللعجب ! ماذا يرى ؟ ها هوذا محمود .. محمود حى لم يمت ! وهو يدخن لفافة بشغف ولذة . . . وإلى جانبه مأذون القرية ، ورجلان من أكرم رجالها

— « قبلت زواجها ! »

— « قبلت زواجها ! »

— « قولى يا ثريا ... وأنا قبلته بعلاً لى ! »

وتقدم الغلام الخبيث الذى كان أخبرهما أن محموداً قد مات ، فسقاهم شراب الليمون المعطر بماء الورد . . . دريني خشبه